

تأملات في مسألة الحجاب

3- ماذا يعني الحجاب بالنسبة للمرأة المسلمة ؟

بقلم : عبد الآخر حماد

حار أصحاب التوجهات العلمانية في تفسير ما يسمونه بظاهرة الحجاب ، وذهبوا في ذلك كل مذهب ، إلا أن يكون ارتداء المسلمة للحجاب استجابةً لأمر الله تعالى وتنفيذاً لحكمه .

من آخر هذه التفسيرات ما خرج به علينا وزير الثقافة المصري من أنه مجرد جزء من الذوق والموضة ، لا علاقة له بالتقوى ، واصفاً من يُفتون بوجوبه بأنهم شيوخ — (تلاته مليم).

ومن قبله زعم من يسميه بعضهم بالمفكر الإسلامي جمال البنا أن الحجاب أمر اقتضته الدواعي المناخية سواء كانت حماية للرأس من البرد والحر والمطر ، أو ستراً له من التراب والرياح .

ومن أطرف تلك التفسيرات ما ذكره الكاتب يوسف القعيد - في تعليقاته على تصريحات وزير الثقافة - من أن الحجاب ليس إلا نبتة زرعها الرئيس الراحل أنور السادات في سبعينيات القرن الماضي ، إذن فماذا كان يحارب قاسم أمين ومن سار على دربه من قبل أن يولد الرئيس أنور السادات ؟

ومن قبل زعم بعضهم أن الحجاب شيء تستر به الفقيرات فقرهن ، أو تستر به الدميمات قبهن .

وكل ذلك تخليط وإسفاف لا علاقة له بالمعنى الحقيقي للحجاب في الإسلام ، أما التفسير الصحيح لحجاب المرأة المسلمة الذي يقرره الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فيمكن تلخيصه في جملة من الحقائق المهمة يمكن الإشارة إلى أهمها في ما يلي :

أولاً : إن المرأة المسلمة حينما ترتدي حجابها الشرعي فإنما تفعل ذلك امتثالاً لأمر الله تعالى الذي قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء

المؤمنين يدين عليهن من جلابيهن) . [الأحزاب : 59] ، والذي قال (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) . [النور : 31] .

إن الحجاب عبادة وخضوع لحكم الله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً) . [الأحزاب : 36]

ولذلك لم تتلكأ نساء الصحابة الكرام في ارتداء الحجاب حين نزل الأمر الإلهي به ، بل بادرن إلى ذلك بمجرد نزول آيات الحجاب كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك في مقال سابق .

ألا وإن من أجهل الجهل ما قاله بعضهم من أن فرائض الإسلام خمسة ليس من بينها الحجاب ، وما درى هذا المسكين أن الأركان الخمسة هي مباني الإسلام أي عموده التي يقوم عليها ، وليست هي كل الفرائض الشرعية ، فعلى قول صاحبنا هذا لا يجب على المسلم أن يبر والديه ، ولا أن يحسن إلى جاره ، ولا يجب الجهاد في سبيل الله لأن ذلك ليس من الأركان الخمسة ! .

ثانياً: إن الحجاب وعلى عكس ما يظن المستغربون من بني جلدتنا هو عنوان حرية المرأة وكرامتها ؛ ففي شرعنا أن الحجاب الكامل شرع للحرائر ، وخفف بعض الشيء عن الإماماء .

فقد ثبت في الصحيح عن أنس رضي الله عنه في قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بصفية أن بعض الصحابة قالوا : هي إحدى أمهات المؤمنين ، وقال بعضهم : هي مما ملكت يمينه فقالوا : (إن حجبها فهي إحدى أمهات المؤمنين ، وإن لم يحجبها فهي مما ملكت يمينه ، فلما ارتحل وطى لها خلفه ومد الحجاب بينه وبين الناس) وفي رواية عند مسلم (فلما أراد أن يركب حجبها فقعدت على عجز البعير فعرفوا أنه قد تزوجها) [أخرجه البخاري (5085) (5159) ومسلم (1365) .

وعنه رضي الله عنه قال : (دخلت على عمر بن الخطاب أمة قد كان يعرفها لبعض المهاجرين أو الأنصار وعليها جلباب متقنعة به فسألها : عتقت؟ قالت: لا ، قال : فما بال الجلباب ؟ ضعيه عن رأسك ، إنما الجلباب على الحرائر من نساء المؤمنين ، فتلكأت

فقام إليها بالدرّة فضرب رأسها حتى ألقته عن رأسها). [أخرجه ابن أبي شيبة وعبد الرزاق في مصنفيهما وصححه الألباني في جلاباب المرأة المسلمة ص: 99]

إن المرأة الحرة حقاً هي التي تحرص على التستر وإخفاء ما أمرها الله بإخفائه من زينتها، لأنها بهذا تكون قد أفردت خالقها ومولاها بالعبودية والطاعة، أما التي تمشي متبرجة سافرة، فقد أطاعت نفسها وهواها وشياطين الإنس والجن، فصارت بذلك أمةً في صورة حرة، وما أحسن قول القائل :

أطعتُ نفسي في الشهوات حتى * أعادتني عسيفاً عبدَ عبدٍ

وأنا أعلم أن هؤلاء المستغربين لن يفهموا هذا الذي قلته على وجهه الصحيح؛ لأنهم يظنون أن الحرية هي أن تفعل المرأة ما تريد، ومع ذلك فالتأمل في كلامهم يرى أنهم يقصدون بحرية المرأة أن تُعطى الحرية في كل شيء إلا في أن تلتزم بشرع ربها، فحينئذ تنتهي حدود الحرية الممنوحة لها، ألم يقل وزير الثقافة إنه لو كان له زوجة لمنعها من ارتداء الحجاب؟ ألا يدل ذلك على أن حديثهم عن حرية المرأة خداع وتضليل؟ إذ كيف يعتبر إلزام المرأة بالحجاب استبداداً ثم لا يُعدُّ منعها منه استبداداً أيضاً؟

إن هذا التناقض العجيب هو ما نلاحظه دائماً في مسلك الأنظمة العلمانية المتطرفة التي تتشدد بالحفاظ على الحريات ثم هي تصدر حق المسلمة - بل واجبها - في طاعة ربها؛ ألا ترى إلى تلك الأنظمة كيف تسمح للمرأة بأن تكون نائبة في البرلمان وأن تصل إلى قمة العمل السياسي، لكنَّ حرباً لا هوادة فيها تُشن حين تفوز امرأة محجبة بمقعد في البرلمان، ثم لا تضع تلك الحرب أوزارها إلا حين تُسقط عضوية تلك المرأة كما حدث في تركيا منذ سنوات .

ثالثاً : الحجاب من أقوى الدواعي إلى طهارة قلوب المؤمنين والمؤمنات وعمارتهما بتقوى الله عز وجل وتعظيم حرّماته ، كما قال تعالى : (وإذا سألتهم عن متاعاً فاسألوهم من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهم) الأحزاب : 53] ، وذلك لأن منع الفتنة عن العين يمنع الشهوة عن القلب ، فالحجاب ومكملاته من غض البصر وعدم الخضوع بالقول يقطع أطماع مرضى القلوب كما قال تعالى : (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) [الأحزاب: 32].

هذا بالنسبة للرجال أما بالنسبة للنساء فإن الحجاب هو بمثابة حاجز نفسي ضد المعصية والانحراف، وذلك أن صلاح الظاهر يورث صلاح الباطن، وإن من الأمور المحرّبات أن الإنسان كلما تمسك بالسمت الإسلامي الظاهر في هيئته وملبسه أعانه ذلك في إصلاح سلوكه وحمله على الاستقامة في أموره كلها، وقدبما قال بعضهم بشأن إعفاء اللحية : عليك أن تربيها (أي تعفوها) حتى تربيك.

ولا عبرة بما شغب به بعضهم من وجود بعض الممارسات المرفوضة إسلامياً من قبل نساء محجبات، فإن ذلك إنما هو استثناء يؤكد القاعدة ولا ينفيتها؛ والملاحظ بحمد الله أن الغالبية من صاحبات الحجاب على غير هذا الذي ذكره، وعلى كل حال فإننا لا يمكن أن نلغي شرع ربنا لكون البعض لا يحسنون تطبيقه أو يسيئون إليه .

رابعاً : الحجاب مانع من الأذى والتحرش الذي يمكن أن تتعرض له المرأة من قبل المستهترين العابثين، كما قال تعالى بعد الأمر بالحجاب : (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين (الأحزاب : من الآية59]، فإن المرأة إذا خرجت متحجبة مستترة عرفت كما يقول الشيخ الألباني : ((بأنها من العفائف المحصنات الطيبات، فلا يؤذيهن الفساق بما لا يليق من الكلام، بخلاف ما لو خرجت متبذلة غير مستترة، فإن هذا مما يطمع الفساق فيها، والتحرش بها كما هو مشاهد في كل عصر ومصر)). [جلباب المرأة المسلمة ص: 90].

وصدق الشيخ ناصر رحمه الله فإن المرأة التي تخرج متبرجة سافرة هي التي تغري هؤلاء العابثين بالتحرش بها والإساءة إليها، وليس ذلك خاصاً ببلاد المسلمين فإن المرأة المحجبة نادراً ما يُتحرش بها حتى في بلاد الغرب، وإن حدث إن تعرض لها بعضهم، فإن ذلك لا يكون من قبيل التحرش بالمعنى المعروف، وإنما من باب التعصب وإظهار الكراهية للإسلام والمسلمين .

سادساً : الحجاب هو مظهر إنسانية المرأة والارتفاع بها عن درجة البهيمية؛ وذلك أن التكشف والتعري فطرة حيوانية بهيمية، أما الإنسان فقد أكرمه الله بأن جعل له من اللباس ما يوارى سواته وجعل في فطرته الميل إلى ستر العورة، وجعل ذلك من آيات الله في خلقه، كما قال تعالى : ((يا بني قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى، ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون)) الأعراف: 26]. .

وقبيح بمن كرمه الله وأراد له أن يرتقي إلى مستوى الإنسانية اللائق به ،قبيح به أن يأبى إلا أن يرتكس إلى دركات البهيمية مُخالفاً أمر الله عز وجل ،ولذلك كان التبرج من أكبر علامات فساد الفطرة وانتكاسها وتبلد الإحساس وموت الشعور .

سابعاً : في الحجاب مخالفة لغير المسلمات فقد قال تعالى : (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) .[الأحزاب : 33] ،فلما كان التبرج من خصائص أهل الجاهلية نُهيت المسلمات عنه ،وأمرن بالحجاب ،وقد دلت النصوص الصريحة على تحريم التشبه بالكافرين ،كما قال صلى الله عليه وسلم : (ومن تشبه بقوم فهو منهم) .[أخرجه أحمد (50/2) وأبو داود(4031)وهو صحيح كما ذكر الألباني في إرواء الغليل (109/5)]

والعجيب أن هذا الذي هو من مقاصد الحجاب في الإسلام صار عند بعض المتفلسفين من دعاة السفور مبرراً للتهجم على الحجاب ؛لأنه بحسب تعبير الكاتب يوسف القعيد : ((يوشك أن يقسم المجتمع إلي نصفين حيث أصبحت غير المحجبة مسيحية حتى تثبت العكس)) ،وقد استدل على ذلك بأن ابنته غير محجبة ،ولذلك فهي عادة ما تُسأل عن اسمها الثلاثي للتأكد من ديانتها .

وأقول إننا مع كامل تشديدنا على أنه لا يجوز إلحاق الظلم بغير المسلمين ،إلا أننا لسنا على استعدادٍ للتخلي عن فرضٍ فرضه الله على نساء المسلمين لنريح ابنة الأستاذ يوسف من تساؤلات المتسائلين ،ولقد مضت على المسلمين في مصر قرون -أدركنا بقاياها في بعض قرى مصر ونحن صغار - كانت المرأة النصرانية فيها تخرج مستترة محتجبة كالمرأة المسلمة ،فهل لا بد لحماية المجتمع مما يخافه الكاتب من الانقسام أن تتخلى المسلمة عن دينها ومظهر عفتها وعنوان حياتها ؟

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً) .

عبد الآخر حماد